

فرار إلى التراث

كان أن قرأت إحصائية نشرت في «رسالة الجامعة» في عدد سابق تشير إلى أن كتب التراث هي أقل الكتب قراءة بين شباب الجامعة.. فأبى القلم إلا أن يشارك؛ وكانت هذه السطور.

عندما يبدأ إحساس بالألم يعتصرك وأنت تقرأ كل يوم أخبار الحروب والكوارث والمجاعات.. عندما يبدأ شعور بالملل يلفك وأنت تقرأ تلك الأشعار السخيفة، وتلك السفسطات الأدبية لأصحاب الأقلام التعيسة.. وعندما يحوطك ذلك الشعور بالضجر من كل ما تقرأه، يبقى أن تترك كل هذه الأشياء جانباً.. ولو لبعض الوقت.. لتسرق بضع لحظات من عمر الزمن في قراءة «الحيوان» للجاحظ، أو «الأذكياء» لابن الجوزي.. عندها فقط، تبدأ في الإحساس بقيمة ذلك الكتاب الذي بين يديك.. بـ: كتاب التراث.

أحمد علي الصرخي

الأسانيد، وحذف المكرر وغيرها من أساليبهم التي لا مجال لذكرها هنا، وهم - أي المحققون - على اختلاف في تحقيقهم لهذا التراث جودة وإبداعاً، وأذكر مرة أنني وجدت نسخة من كتاب «الحيوان» للجاحظ، وعندما قلبت صفحاتها وقرأت فهرسها استقلتها - أي هذه النسخة، ولكن بعد مدة وجدت نسخة أخرى من الكتاب نفسه لمحقق آخر، فقلب صفحاتها وقرأت فهرسها، فأعجبني ما فيها، وأخذت هذه النسخة. وكانت بالفعل نعم الجليس والونيس عند الوحدة.

وحقيقة نذكرها هنا، هو أن بعض هذه الكتب فيه من الكذب والاختلاطات والعيث، ولكن هذا لا ينتقص من قيمتها الأدبية أو العلمية أو التاريخية، فقد عاش بعض مؤلفي هذه الكتب في مرحلة مرت بالأمية الإسلامية، كانت فيه قد بعدت عن دينها، فظهرت هذه المظاهر في حياتهم وكتبهم. ندعو الله أن يثبتنا على ديننا بالقول الثابت.

وأخيراً - وليس آخراً - فهذه هي كتب التراث، وهذا ما استطعت تبينه لكم، وهو جهد المقل.. إذن هي دعوة لإزالة ذلك الغبار المتراكم على عقولنا جراء ما نقرأه من سفاسف الكلام، وهي في الوقت نفسه دعوة لإزالة ذلك الغبار المتراكم على صفحات هذه الكتب على أرفف المكتبات، لترى النور من جديد.

خاتمة: نادرة من التراث:

يذكر الجاحظ في كتابه «الحيوان»: أن أعرابياً سار في الصحراء في جو قارس البرودة، حتى كاد يموت من شدة البرد، حتى وجد نازاً، فتدفأ عليها، ثم حمد الله وقال: «اللهم لا تحرمننا منها لا في الدنيا ولا في الآخرة»..

نعوذ بالله من سقطات اللسان.

ومن أجمل ما قيل شعراً:

أرى حمزاً ترعى وتلعف ما تهوى
واسدًا جيعاً تظلم الدهر لا تروى
وأشراف قوم لا ينالون قوتهم
وقوماً لئاماً تاكل المن والسلوى

الهوامش:

(١) رغم القيمة الكبيرة لكتاب «الآغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، إلا أن فيه من الكذب والاختلاق على آل البيت، وعلى العرب عموماً الشيء الكثير، ولوليد الأعظمي كتاب اسمه «السيف البيعاني في نحر الأصفهاني صاحب

والأمراء يهتمون بالعلم والعلماء والأدب والأدباء بأذنين في سبيل ذلك كل غالٍ ونفيس، مما شجع على الإنتاج والإبداع.

ورغم ما يوجد بين أيدينا الآن من كتب التراث، ورغم ما تحويه المكتبات في الشرق والغرب من مخطوطاتها، فإن ما ضاع منها أكبر وأوسع من جراء الحروب والغارات والكوارث التي لحقت بالعالم الإسلامي، ويكفي أن نذكر زخفة هولوكو على بغداد سنة ١٥٦٦هـ، وما تسببت فيه من إحراق خزائن الكتب، ورمي الآلاف منها في نهر دجلة حتى تحول لونه إلى اللون الأزرق من أثر الحبر.

وأظنك بعد أن عرفت شيئاً عن تاريخ هذه الكتب وعن جانب من قصتها، أظنك قد تسألني ماذا يميز كتب التراث - هذه التي نتحدث عنها - عن غيرها من الكتب التي تملأ السوق اليوم؟ والحقيقة أن الفرق شاسع والبون واسع بينها وبين غيرها، فالكاتب من أولئك كابين خلدون والثعالبي والجاحظ، عندما كان يكتب فهو يكتب من قلبه، يدفعه إحساس، بأهمية أن يخلد كتابه بين الناس، أما بعض الكُتّاب اليوم فهم لا يرون في الكتابة إلا مهنة يربحون من ورائها، ثم لا يهم ماذا يحصل بعد ذلك.. ونرجع لكتب التراث نفسها والتي تمتاز عن غيرها بأنها تجمع بين دفتيها الحكم والعبر، وقصص الأولين وأخبار السابقين، هذا بالإضافة إلى ما تحويه من نوادر ولطائف، وعجائب، وآثار، وأشعار جميلة، وحكم خالدة، وتجارب سابقة لأناس عاركوا الحياة فعرفوها وأمدونا بحكماتهم. وكل هذا قد تجده في كتاب واحد مضافاً إليه الأسلوب الأدبي الراقي الذي يجذب إليه من أول كلمة تقرأه.. فأتين هذا مما تلفظه المطابع كبعض كتب هذه الأيام؟

ويكفي أنك ما إن تمسك أحد هذه الكتب حتى تحس بأنك قد خرجت خارج حدود زمك هذا، ورجعت إلى الوراء آلاف السنين، فتارة أنت مع ابن بطوطة في رحلاته العجيبة الشائعة في الصين والهند.. وتارة أنت مع «حيوان» الجاحظ لتتعرف على غرائب صفات بعض من مخلوقات الله، مضافاً إليها النوادر والحكم.. وتارة أنت مع الثعالبي في كتابه «فقه اللغة وسر العربية» لتقف على بعض أسرار لغتنا الغراء وبعض لطائفها.. وإذا أنت أحتجت ساعة من مرح فاقراً كتاب «النوادر

كثيراً ما تصك أسماعنا عبارة «كتب التراث» سواء سمعناها في المذياع، أو قرأناها في مقال عابر، ولكن هل نحن نعرف حقاً ما المقصود بكتب التراث؟ ما أنواعها؟ في أي العلوم هي؟ أم يكفي أننا سمعناهم يقولون كتب التراث، فرددناها خلفهم..!

والحقيقة أن عبارة «كتب التراث» تعني كل ما خلفته أجيال العرب المسلمين من ألوف الكتب والرسائل في فروع العلم المختلفة، مما لا يزال الكثير منه مخطوطاً في مكتبات العالم في الشرق والغرب على حد سواء، أو بالأصح لا يزال أسيراً داخل صندوق من الزجاج المصقول اللامع ينتظر من يحرره.

وكلمة التراث قد تعني أيضاً ما خلفه حافظ إبراهيم أو شوقي أو المازني، إلا أن المقصود في الغالب هو ما خلفه العلماء والأدباء أيام الخلافتين الأموية والعباسية والخلافة الأموية في الأندلس، أيام عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في كل صنوف العلم والمعرفة.

وهذه الكتب هي ثروتنا الحقيقية التي ورثها لنا أجدادنا الأوائل في العلم والأدب، وهي أكبر دليل ع ازدهار حضارتنا في يوم من الأيام، عندما كان الملو